

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة النبوية

الدرس السابع

الهجرة إلى المدينة

الشيخ/ ناصر بن محمد الأحمد

الهجرة إلى المدينة:

هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة هو ذلك الحدث الذي غير مجرى التاريخ. إن حدث الهجرة يمثل أهم حدث من أحداث التاريخ الإسلامي، به بدأ بناء الدولة الإسلامية، وبناء الأمة التي تعبد الله وحده لا شريك له، وتبليغ دينه الحنيف إلى كل الناس.

إن حدث الهجرة يرفع الإنسان من الذل إلى العزة إذا كان بين قوم لئام، فهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ناله من مشركي مكة ما ناله، فخرج منها مهاجرًا، وقال وهو على راحلته بعد أن خرج منها: "والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجَت منك ما خرجت"، فهاجر إلى طيبة الطيبة، فكان من أمره ما كان، ثم عاد إليها وفتحها الله عليه.

لقد هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل الدين لا من أجل الدنيا، فقد بقي في مكة طيلة هذه المدة رغم الأذى الذي يتعرض له هو وأصحابه، لأنه كان يسير بأمر الله سبحانه، وكان يريد أن يبلغ دين الله سبحانه وأن يهدي البشرية إلى طريق السعادة الأبدية **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا\* }** **وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** [سورة الأحزاب: (٤٥-٤٦)].

لقد كانت الهجرة نتيجة صبر ثلاثة عشر عامًا من الخوف والجوع والحصار والأذى، فكانت الثمرة على قدر التعب وعلى قدر الصبر، وهكذا هذا الدين لا يعطي ثمرته إلا لمن صبر وثابر، أما من استعجل النتائج فإنه يُحرَم وهذه سنة كونية، من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

فدولة المدينة التي شِعَّ منها النور إلى كل الأرض كانت نتيجة لصبر مكة، ورسول الله الذي خرج من مكة سرًا والناس يبحثون عنه، دخل المدينة في احتفال عظيم يحفّ به الناس من كل جانب، كل منهم يطلب منه أن ينزل عنده، وتحقق للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأصحابه قول الله تعالى ووعد له لعباده الصالحين:

**{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}** [سورة النور: (٥٥)]

سورة النور].

لم تكن الهجرة إلى المدينة ترفاً ثقافياً أو سياحةً أو متعةً أو استكشافاً لعالم جديد، كلاً، لقد كانت خياراً لا مفرّ منه، وحلاً أخيراً بعد أن ضاقت بالمسلمين أرض مكة بما رحبت وتغير عليهم الناس، وأصبحت بضع ركعات في المسجد الحرام جريمة لا تغتفر، وغدت قراءة القرآن رجعيةً وهمجيةً وإرهاباً وتطرفاً في نظر قريش.

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- بدعاً في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظاً عليها وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها، وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة، وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر.

وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتدى على مروءته وكرامته.

إن الهجرة من مكة كانت إيذاناً بفتح مكة، لماذا؟ لأن الهجرة النبوية لم تكن هروباً من معركة أو فراراً من مواجهة، بل كانت تجسيداً للجهد وترسيخاً لقواعد الإيمان.

ما كانت الهجرة طلباً للراحة والاستجمام ولا حرصاً على الحياة، بل كانت استجابة لأمر رباني لاستئناف الحياة الإسلامية.

من كان يظن أن يكون أولئك نفر السنة سيكونون هم بداية مرحلة جديدة من العز والتمكين، والبذرة الأولى لشجرة باسقة ظلت تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟.

ومن كان يخطر بباله أن تشهد تلك الليلة من ليالي الموسم ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه أبو بكر يطوفان بمنى حتى إذا سمعا صوت رجال يتكلمون مالا إليهم فقالوا وقالوا، وتحادثا وسمعوا، وبيننا فأصغوا، فانشرحت القلوب، ولانت الأفئدة ونطقت الألسنة بالشهادتين، وإذا بأولئك نفر من شباب يثرب يطلقون الشرارة الأولى من نار الإسلام العظيمة التي أحرقت الباطل فتركته هشيماً تذروه الرياح؟.

من كان يظن أن تلك الليلة كانت تشهد كتابة السطور الأولى لملحمة المجد والعزة؟ يا سبحان الله، إن نصر الله يأتي للمؤمن من حيث لا يحتسب ولا يقدر، لقد طاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمجتمعات القبائل وقصد الرؤساء وتوجه بالدعوة إلى الوجهاء وسار إلى الطائف، فعل ذلك كله عشر سنوات وهو يرجو أن يجد عند أصحاب الجاه والمنعة نصرة وتأييداً.

كان يقول -صلى الله عليه وسلم- في كل موسم: **(من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي))**، ومع كل هذا لم يجد من يؤويه ولا من ينصره، بل لقد كان الرجل من أهل اليمن أو من مضر يخرج إلى مكة فيأتيه قومه فيقولون له: "احذر غلام قريش لا يفتتك!"

نعم لم تأت النصر والحماية والتمكين من تلك القبائل العظيمة ذات المال والسلاح، وإنما جاءت من ستة نفر جاؤوا على ضعف وقلة.

إنها التقادير يوم يأذن الله بالفرج من عنده، ويأتي النصر من قلب المحنة، والنور من كبد الظلماء، والله تعالى هو المؤيد والناصر، والبشر عاجزون أمام موعود الله.

أرأيتم، يُعرض الكبراء والزعماء ويستكبر الملاء وتتألب القبائل وتتأمر الوفود وتسد الأبواب، ثم تكون بداية الخلاص بعد ذلك كله في ستة نفر لا حول لهم ولا قوة، فهل يدرك هذا المعنى أولئك المتعلقون بأذيال المادية

الصارخة والنافضون أيديهم من قدرة الله وعظمته؟ وهل يدرك هذا المعنى الغارقون في تشاؤمهم اليائسون من فرج قريب لهذه الأمة المنكوبة المغلوبة على أمرها؟

إن الله ليضع نصره حيث شاء ويبيد من شاء وعلينا أن نعمل، وأن نحمل دعوتنا إلى العالمين، وألا نحقر أحداً ولا نستكبر على أحد، وعلينا أن نواصل سيرنا مهما أظلم الليل واشتدت الأحزان، فمن يدري لعل الله يصنع لنا في حلقات ليلنا الداجي خيوط فجر واعد؟ ومن يدري لعل آلامنا هذه مخاض العزة والتمكين؟. إن الهجرة النبوية الشريفة كانت بحق فتحاً مبيناً ونصراً عزيزاً وتمكيناً وظهوراً لهذا الدين، وهزيمة ودلاً وصغاراً على الكافرين.

وإن هذه الأمة المسلمة خليفة بأن تأخذ من أحداث الهجرة المدد الذي لا ينفد والمعين الذي لا ينضب والرزاد الذي لا يفنى، فتحتط لنفسها خطة رشد ومناهج سير ومعالم هداية وسبيل سعادة، إذ هي جديرة بأن تبعث في الأمة المسلمة اليوم ما قد بعثته فيها بالأمس من روح العزة وبواعث السمو وعوامل النصر وأسباب التمكين. إنه الحدث الذي ما تزال أنواره وأسراره تكشف لنا الكثير من الخلل والخطر الذي تعيشه أمتنا، إنه الحدث العظيم الذي غير وجه تاريخ البشرية كلها، إنه الحدث العظيم الذي أعلن مبادئ الأمة وشيد معالم الدولة. لا تعرف الإنسانية ولا الحياة ولا الشعوب في تاريخها الطويل حدثاً كالهجرة كان له بعد الآثار والنتائج على البشر أجمعين، وليس في تاريخ الإسلام ما يفوق الهجرة في جلالها وأهميتها وعظمتها، وفي بعيد أثرها على تاريخه وتاريخ المسلمين كافة.

واتفق الصحابة على جعل الهجرة مبدأً للتاريخ الإسلامي؛ وذلك لأنهم رأوا في الهجرة أعظم نصر حققه الإسلام، وميلاداً جديداً أحيى به عقولاً سممتها الشكوك والشبهات وحل به من الأغلال أفكاراً قيدتها الخرافات، والهجرة مثل رائع للثبات والصبر والتحمل وقوة الإيمان، فلقد قام الرسول -صلى الله عليه وسلم- بمكة يدعو الناس إلى الله، فأوذي وحورب وحوصر حتى أراد الله إظهار دينه فساق إليه نفرًا من الأنصار من أهل المدينة فأمنوا ورجعوا إلى المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا ودخلها الإسلام، وهكذا هياً الله لرسوله دار الهجرة.

وقبل الهجرة إلى المدينة هاجر المهاجرون الأوائل إلى الحبشة، ففي الوقت الذي اشتد فيه أذى الكفار لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولمن أسلم وجهه لله أذن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الهجرة إلى الحبشة وقال: ((إن بها ملكاً لا يُظلم الناس عنده))، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة في مقدمتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار وتوالت الهجرة إلى الحبشة ثم جاءت هجرة المدينة.

وملخص أحداثها: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يبلغ رسالة ربه ويدعو إليه على بصيرة فلم يجد من أكثر قریش وأكابرهم سوى الرفض لدعوته والإعراض عنها والإيذاء الشديد للرسول -صلى الله عليه وسلم- ومن آمن به حتى آل الأمر بهم إلى تنفيذ خطة المكر والخداع لقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث اجتمع كبارهم في دار الندوة وتشاوروا ماذا يفعلون برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين رأوا أصحابه يهاجرون إلى المدينة وأنه لا بد أن يلحق بهم ويجد النصرة والعون من الأنصار

الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم وحينئذ تكون له الدولة على قريش، فقال عدو الله أبو جهل: "الرأي أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا ثم نعطي كل واحد سيفاً صارماً ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ونستريح منه، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا قومهم جميعاً فيرضون بالدية فنعطيهما إياها".

فنزل جبريل -عليه السلام- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بوحي من ربه -تبارك وتعالى- فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبين له خطة الرد على قريش فقال: "لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه".

وذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- في الهجرة حين يستريح الناس في بيوتهم إلى أبي بكر -رضي الله عنه- ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة -رضي الله عنها-: "بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- متفنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: "والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر"، قالت: فجاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر: ((أخرج من عندك))، فقال أبو بكر: "إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله"، قال: ((فإني قد أذن لي في الخروج))، فقال أبو بكر: "الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال: ((نعم))، ثم أبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل، واستمر في أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لا يشعر أحد بأنه يستعد لشيء.

أما أكابر مجرمي قريش ففقضوا نهارهم في الإعداد سراً لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة في دار الندوة صباحاً.

وكان من عادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن ينام في أول الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج بعد نصف الليل إلى المسجد الحرام يصلي فيه قيام الليل، فأمر علياً -رضي الله عنه- تلك الليلة أن يضطجع على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه، فلما كانت عتمة من الليل وساد الهدوء ونام عامة الناس، جاء المجرمون إلى بيته -صلى الله عليه وسلم- سراً، واجتمعوا على بابهِ يرصدونه، وهم يظنونهم نائماً حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه، ونفذوا ما قرروا فيه، وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة، وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل في وقت خروجه -صلى الله عليه وسلم- من البيت، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره بيده ملكوت السموات والأرض يفعل ما يشاء وهو يجير ولا يجار عليه فقد تحقق ما خاطب به الله الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما بعد: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [سورة الأنفال: 30].

وقد فشلت قريش في خطتها فشلاً ذريعاً مع غاية التيقظ والتنبه؛ إذ خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من البيت واخترق صفوفهم وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رؤوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو قوله -عز وجل-: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا**

**يُبْصِرُونَ** [(٩) سورة يس]، فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضى إلى بيت أبي بكر فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن.

وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلّت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: "ما تنتظرون؟"، قالوا: "محمدًا"، قال: "خبتم وخسرتم، قد والله مرَّ بكم ونزَّ على رؤوسكم التراب وانطلق لحاجته"، قالوا: "والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم". وتطلعوا من صير الباب فرأوا عليًا، فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا.

وقام عليٌّ عن الفراش فسقط في أيديهم وسألوه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: "لا علم لي به". غادر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيته وأتى إلى دار أبي بكر -رضي الله عنه- ثم غادرا المنزل وخرجا من مكة على عجل قبل أن يطلع الفجر.

ولما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم أن قريشًا ستجدُّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالًا، فسلك الطريق الذي يضاده تمامًا وهو الطريق الواقع جنوب مكة والمتجه نحو اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وهو جبل شامخ وعِرِ الطريق صعب المرتقى ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل وطفق يشدد به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثور.

ولما انتهى إلى الغار قال أبو بكر: "والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك"، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به، وبقي منها اثنان فألقمهما رجله، ثم قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "ادخل، فدخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسقطت دموعه على وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ((ما لك يا أبا بكر؟))، قال: "لدغت فداك أبي وأمي، فتقل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الموضع فذهب ما يجده.

وكمنا في الغار ثلاث ليال، وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما، قالت عائشة: وهو غلام شاب تقف لِقْن، فيُدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر فيتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليُعفي عليه.

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًا وسحبوه إلى الكعبة وحبسوه ساعة عليهم يظفرون بخبرهما.

ولما لم يحصلوا من عليّ على جدوى جاؤوا إلى بيت أبي بكر وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدري والله أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده فلطم خدها لطمه طرح منها قرطها.

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة في جميع الجهات تحت المراقبة المسلحة الشديدة، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين كائنًا من كان. فجدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب وانتشروا في الجبال والوديان والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى، وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره.

روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: "كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا"، قال: ((اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما))، وفي لفظ: ((ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)).

وحين خمدت نار الطلب وتوقفت أعمال دوريات التفتيش وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى تهيأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه للخروج إلى المدينة، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي، وكان خريّتا ماهرا بالطريق وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك وسلما إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، فلما كانت ليلة الاثنين غرة ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين وأنتهما أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- بسفرتيهما، ونسيت أن تجعل لها عصاما، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفارة فإذا ليس لها عصام، فشقت نطاقها بائنتين، فعلقت السفارة بواحد وانتطقت بالآخر فسميت: ذات النطاقين.

ثم ارتحل النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر -رضي الله عنه-، وأول ما سلك بهم ابن أريقط بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وسلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرا.

قال عروة بن الزبير: "سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أورا إلى بيوتهم أوفي رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي إلا أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح وتلقوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بظهر الحرّة". وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يوما مشهودا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها.

أقبل فتلك ديار يثرب تقبل \*\*\* يكفيك من أشواقها ما تحمل  
القوم مذ فارقت مكة أعين \*\*\* تأبى الكرى وجوانح تتململ  
يتطلعون إلى الفجاج وقولهم \*\*\* أفما يطالعنا النبي المرسل

رفت نضارتها وطاب أريجها \*\*\* تدفقت أنفاسها تتسلسل

فكأنما في كل دار روضة \*\*\* وكأنما في كل مغنى بلبل

ونزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقاء، وكان وصوله يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول، ومكث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بمكة ثلاثاً حتى أدى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الأمانات التي كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشياً على قدميه حتى لحقهما بقاء.

وأقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقاء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان اليوم الخامس يوم الجمعة ركب بأمر الله له، وأبو بكر رديفه، وأرسل إلى بني النجار أخواله فجاؤا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلى بهم في المسجد الذي في بطن الوادي وكانوا مائة رجل، ثم سار بعد الجمعة حتى دخل المدينة، ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وكان يوماً مشهوداً ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، ولا يستطيع واصف أن يصف ذلك المشهد العظيم حين خرج أهل المدينة مهللين مكبرين فرحين بمقدم النبي الكريم.

وعند وصوله -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله، فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقاً يوم عيد؛ لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقائع الأرض.

لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حياهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون: يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله.

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليه فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: "هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة"، فكان يقول لهم: ((خلوا سبيلها فإنها مأمورة))، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها، وذلك في بني النجار -أخواله- صلى الله عليه وسلم- وبأمر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله فأدخله بيته، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((المرء مع رحله))، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده.

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص لم يُمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد غزوة بدر.

شعّ الهدى والبشرُ في بسماته \*\*\* واليُمن والإيمان في قسامته  
وتفجرت فينا ينابيع الهدى \*\*\* واستيقظ التاريخ من غفواته  
"اقرأ وربُّك" في حراء تحررت \*\*\* والدهر غاف في عميق سباته  
جبريل حاملها وأحمد روحها \*\*\* إن الحديث موثّق برواته  
إقرأ معاني الوحي في كلماته \*\*\* في نسكه وحياته ومماته  
لو نظّمت كلّ النجوم مدائحًا \*\*\* كانت قلائدَهنّ بعض صفاته  
يا من بنى للكون أكرم أمة \*\*\* من علمه من حلمه وأناته  
صاروا ملوكًا للأنام بُعيد أن \*\*\* كانوا رعاء الشاء في فلوته  
من حطّم الأصنام في تكبيره \*\*\* من عانق التوحيد في سجداته  
من أطلق الإنسان من أغلاله؟! \*\*\* من أخرج الموعود من دركاته؟!  
من علمّ الحيران درب نجاته؟! \*\*\* من أورد العطشان عذب فراته؟!  
من هدّ بنيان الجهالة والعمى؟! \*\*\* وبنى الأمان على رميم رفاتِه؟!  
في الهجرة الغراء ذكرى معهد \*\*\* نستلهمُ الأمجاد من خطراته  
تاريخ أمتنا ومنبع عزّنا \*\*\* ودروبنا تزهو بإشراقاته  
فيه الحضارة والبشارة والنقى \*\*\* ومُقبل هذا الكون من عثراته  
فتألقي يا نفس في نفحاته \*\*\* واستشر في الغايات من غاياته

إن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة بحسب الظاهر ترك للوطن وتضييع له لكنها كانت في الواقع حفاظاً عليه وضمانة له، فقد عاد بعد بضع سنوات من هجرته، عاد إلى وطنه الذي أخرج منه عزيز الجانب منصوراً مظفراً، من أجل كل ذلك أرخ المسلمون بالهجرة، فلقد كانت نصرًا وميلادًا جديدًا للإسلام.

إنه الحدث الذي يحمل في طياته معاني الشجاعة والتضحية والإباء والصبر والنصر والفداء والتوكل والقوة والإخاء والاعتزاز بالله وحده مهما بلغ كيد الأعداء، إنه حدث الهجرة النبوية الذي جعله الله سبحانه طريقًا للنصر والعزة ورفع راية الإسلام وتشبيد دولته وإقامة صرح حضارته، فما كان لنور الإسلام أن يشع في جميع أرجاء المعمورة لو بقي حبيسًا في مهده، والله الحكمة البالغة في شرعه وكونه وخلقه.

هذه هي قصة تلك الرحلة العظيمة رحلة الهجرة، رحلة الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، رحلة خروج الداعية من بلده إلى أرض الله الواسعة ليمارس شعائر دينه وينشر دعوته على الناس فيعم الخير، رحلة المفارقة لقوم السوء الذين لا ينشرون الخير ولا يعينون عليه.

تلك الهجرة التي غيرت مسار التاريخ، وفاجأت العالم بأحداثها الضخمة ونتائجها المدهشة، فقد كانت سببًا رئيسًا لقيام دولة الإسلام في المدينة، تلك الدولة التي لم تقف عند حدود سياسية أو خطوط تماسٍ مكهربة صنعها المحتلّ الأجنبي، ولكنها أخذت في الانتشار يمينًا ويسرة، حتى نتج عنها دولة الإسلام العالمية، والتي

غمرت الدنيا بفيض نورها المشع، وبددت الظلام المترام عبر السنين، وقدمت للبشرية أنموذجاً نادراً للكيفية التي تبنى من خلالها الدول، فتنصغر أمام ذلك الأنموذج الفريد كل النماذج الأخرى.

ما أحوج الأمة اليوم وهي تعاني ما تعانيه من تمزق وضعف وتناحر، ما أحوجها إلى قراءة تاريخها من جديد، ومراجعة سير أسلافها الأولين، لتأخذ الدروس والعبر علها تستعيد مجدها الغابر وتاجها المفقود، فهيات هيات أن يصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما صلح به حال أولها، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

إن في هذا الحدث العظيم من الآيات البيّنات والآثار النيرات والدروس والعبر البالغات ما لو استلهمته أمة الإسلام اليوم وعملت على ضوئه وهي تعيش على مفترق الطرق لتحقق لها عزا وقوتها ومكانتها وهيبتها.

أولاً: إننا نعيش في وقت كثر العدو عن أنيابه وأطلت الروبيضة برأسها القبّيح: ألا إن من أعظم دروس الهجرة الشريفة ما يجب أن ندرکه جميعاً أنّ الغاية الكبرى من الوجود الإنساني بأسره هو عمارة الأرض بالتوحيد والإيمان، وإقامة حكم الله وشرعه في عظام الأمور فما دونها، أليس الله يقول: **{إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِبَائِي فَاعْبُدُونِ}** [سورة العنكبوت].

إذا فمتى تعذرت تحقيق هذه الغاية فوق أرض ما، فلا بد من البحث عن غيرها مهما كان الثمن، ومهما كانت التضحيات أملاً في إيجاد أرضية صالحة للانطلاق العظمى ونشر الإسلام في ربوع الأرض وعرض العقيدة بصفتها ونقائنها على الناس دون ضغط أو إكراه.

وهكذا كان الأمر في مكة، فيوم رفض أهلها الإيمان والتوحيد وآثروا الكفر والتقليد أصبحت مكة بلد كفر ودار حرب، وحرّم البقاء فيها، وأصبحت مجاورتها مع القدرة على مغادرتها واحدة من كبائر الذنوب، **{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}** [سورة النساء].

ثانياً: إنه لا قيمة للأرض ولا للوطن حين تفسد الأرض ويكفر الوطن: لقد هاجر النبي صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الوطن الذي تربوا فيه والأرض التي نشؤوا فوقها، وباعوها بأرخص الأثمان، واشتروا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وفي هذا كله صفة لكل الذين يُمجدون الأرض والرمال، ويُعظمون الصخور والتراب على حساب العقيدة.

إنّ الولاء يجب أن يكون لله وحده، فالأرواح لا تبذل إلا في سبيله، والدماء لا تراق إلا من أجله، والجهاد لا يكون إلا لإعلاء دينه، أما حبّ الوطن فإنما يكون بمقدار حبّ أهله للإسلام وتمسك أهله بالإسلام، وبغير الإسلام تصبح الأوطان مجرد أترية وحجارة لا وزن لها ولا قيمة، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}** [سورة التوبة].

ثالثاً: إنّ هذا الدين لا يقوم إلا بالتضحية والبذل والعطاء: إنه دين لا يُعَلَّقُ كبير أمل على الكسالى والخانعين، ولا يمنح شرف حمله ونصرتة للمتراجعين والمتثاقلين.

إنّ الدين ليس قضية بيع وشراء أو منة وأذى، إنما هو جهد وعناء، وبذل وعطاء، وتضحية وفداء، ودموع ودماء، وجراح وأشلاء.

قَلْبِ النَّظَرِ أَنِّي شئتَ فِي تَارِيخِ أَسْلَافِكَ: أَمَا خَلَعْتَ رُؤُوسٌ مِنْ أَجْلِ هَذَا الدِّينِ؟! أَمَا بُقِرْتَ بَطُونٌ؟! أَمَا قُطِّعَتْ أَطْرَافٌ؟! أَمَا سُحِلَتْ أَجْسَامٌ وَسَمَلَتْ عَيُونٌ!؟

الجواب: بلى، لقد مضت قوافل الشهداء وقوافل المجاهدين إلى ربها، بعضها إثر بعض، فماذا صنعت أنت أيها الأخ الحبيب؟! ماذا قدمت لديك وأمتك المُعذِّبة؟! ما مقدارُ الهمِّ الذي تحمله في قلبك تجاه قضايا الإصلاح والتغيير؟!.

رابعاً: إن من أعظم دروس الهجرة وأجل عبرها: صناعة الأمل: نعم، إن الهجرة تعلم المؤمنين فنَّ صناعة الأمل، الأمل في موعود الله، الأمل في نصر الله، الأمل في مستقبل مشرق لـ(لا إله إلا الله)، الأمل في الفرج بعد الشدة، والعزة بعد الذلة، والنصر بعد الهزيمة.

لقد رأيتم كيف صنع ستة نفر من يثرب أمل النصر والتمكين، وها هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصنع الأمل مرة أخرى حين عازمت قريش على قتله.

إن الهجرة تعلمنا في كل فصل من فصولها كيف نصنع الأمل، ونترقب ولادة النور من رحم الظلمة، وخروج الخير من قلب الشر، وانبثاق الفرج من كبد الأزمات.

ما أوجنا ونحن في هذا الزمن -زمن الهزائم والانكسارات والجراحات إلى تعلم فنَّ صناعة الأمل - فمن يدري ربما كانت هذه المصائب باباً إلى خير مجهول؟ ورب محنة في طيها منحة! أوليس قد قال الله تعالى: **{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}** [سورة البقرة]؟!.

لقد ضاقت مكة برسول الله ومكرت به فجعل نصره وتمكينه في المدينة، وأوجفت قبائل العرب على أبي بكر مرتدة، وظنَّ الظَّانون أن الإسلام زائل لا محالة، فإذا به يمتد من بعد ليعم أرجاء الأرض، وهاجت الفتن في الأمة بعد عثمان حتى قيل لا قرار لها ثم عادت المياه إلى مجراها، وأطبق التتار على أمة الإسلام حتى أبادوا حاضرتها بغداد، وقتلوا في بغداد وحدها مليوني مسلم وقيل: ذهبت ريح الإسلام، فكسر الله أعداءه في عين جالوت وعاد للأمة مجدها، وتمالاً الصليبيون وجيشوا جيوشهم وخاضت خيولهم في دماء المسلمين إلى ركبها حتى إذا استنأس ضعيف الإيمان، نهض صلاح الدين فرجحت الكفة الطائشة وطاشت الراجحة، وابتسم بيت المقدس من جديد، وقويت شوكة الرافضة حتى سيطر البويهيون على بغداد والفاطميون على مصر وكتبت مسبة الصحابة على المحاريب ثم انقشعت الغمة واستطلق وجه السنة ضاحكاً، وهكذا يعقب الفرج الشدة، ويتبع الهزيمة النصر، ويؤذن الفجر على أذيال ليل مهزوم فلم اليأس والقنوط؟

خامساً: في مجال تربية الشباب والمرأة وميدان البيت والأسرة يبرز الأثر العظيم في حدث الهجرة المصطفوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، ففي موقف عبد الله بن أبي بكر -رضي الله عنهما- في خدمة ونصرة صاحب الهجرة -عليه الصلاة والسلام- ما يجلي أثر الشباب في الدعوة ودورهم في الأمة ونصرة الدين والملة، أين هذا مما ينادي به بعض المحسوبين على فكر الأمة وثقافتها من تخدير الشباب بالشهوات وجعلهم فريسة لمهازل القنوات وشبكات المعلومات في الوقت الذي يعدون فيه للاضطلاع بأعلى المهمات في الحفاظ على الدين والقيم والثبات على الأخلاق والمبادئ أمام المتغيرات المتسارعة ودعاوى العولمة المفضوحة؟!.

وفي موقف أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- ما يجلّي دور المرأة المسلمة في خدمتها لدينها ودعوتها، فأين هذا من دعاة المدنية المأفونة الذين أجلبوا على المرأة بخيلهم ورجلهم زاعمين زوراً وبهتاناً أن تمسك المرأة بثوابتها وقيمها واعتزازها بحجابها وعفافها تقييداً لحريتها وفقد لشخصيتها وبئس ما زعموا؟! فخرجت من البيت تبحث عن سعادة موهومة وتقدمية مزعومة تظنها في الأسواق والشوارع والملاهي والمصانع، فرجعت مسلوبة الشرف مدنسة العرض مغتصبة الحقوق عديمة الحياء موعودة الغيرة، وتلك صورة من صور إنسانيات العصر المزعومة وحريته المأفونة ومدنيته المدعاة، ألا فليعلم ذلك اللاهثون واللاهثات وراء السراب الخادع والسائرون خلف الأوهام الكاذبة.

سادساً: التغيير لا يأتي من الخارج: إن الدرس الذي ينبغي أن نؤكد عليه في هذا المقام هو أن إقامة دولة الإسلام الأولى كانت نتيجةً للتغيير الضخم الذي شهدته نفوس الجماعة المؤمنة الأولى التي ارتضت الإسلام ديناً، وتربّت عليه وضحت من أجله، كما قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** [(١١) سورة الرعد]، ولذلك فقد كان نصراً حقيقياً باقياً وكلُّ تغيير لا يأتي من داخل الأمة نفسها لا يؤتي ثمرته المرجوة، فكلُّ تغيير تصنعه القوة القاهرة أو القرارات الفوقية تغييرٌ محدود الأثر.

إنَّ أمتنا تشهد في هذه الفترة من تاريخها محاولات لتغيير واقعها الأليم، الذي يدرك كافة أبنائها أنه قد آن الأوان لتغييره، وإحداث تطور حقيقي فيه، لكنَّ البعض منا يروّج لمشاريع تغيير مستوردة من الخارج في ظل العولمة والقطب الدولي الوحيد، ويتلمّس لنفسه العذر في ذلك بأن أبواب التغيير من الداخل موصدة.

والحق أن واقعنا أليم قد أصابه التيبس والجمود، لكننا واثقون في الوقت ذاته أن الحلول المستوردة الجاهزة لن تحل مشكلاتنا، وأن أعدائنا لا يريدون خيراً بنا، وأن دغدغة مشاعر البسطاء والمضطهدين بشعارات الحرية الغربية لن تُفيد، وقد رأينا ثمرة تلك الشعارات منذ أمد في فلسطين، التي يعاني أهلها ما لا يطيقه بشرٌ بفعل الاحتلال الصهيوني، الذي تباركه الإدارة الأمريكية، واليوم نراه في عدد من الدول، يدعي الاحتلال أنه يريد تحرير هذه الشعوب من الظلم كما في أفغانستان والعراق وغيرها، والحقيقة أنه هو الظلم نفسه.

سابعاً: إشارة إلى أمر يتعلق بحدث الهجرة النبوية في قضية تعبر بجلاء عن اعتزاز هذه الأمة بشخصيتها الإسلامية، وتثبت للعالم بأسره استقلال هذه الأمة بمنهجها المتميز المستقى من عقيدتها وتاريخها وحضارتها.

إنها قضية إسلامية وسنة عمريّة أجمع عليها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، إنها التوقيت والتأريخ بالهجرة النبوية المباركة، وكم لهذه القضية من مغزى عظيم يجدر بأمة الإسلام اليوم تذكره والتقدير به، كيف وقد فتن بعض أبنائها بتقليد غير المسلمين والتشبه بهم في تأريخهم وأعيادهم؟ أين عزة الإسلام؟! وأين هي شخصية المسلمين؟! هل ذابت في خضم مغريات الحياة؟! فالإي الذين تتكروا لثوابتهم وخذشوا بهاء هويتهم وعملوا على إلغاء ذاكرة أمتهم وتهافتوا تهافتاً مذموماً وانساقوا انسياقاً محموماً خلف خصومهم، وذابوا وتميعوا أمام أعدائهم ننادي نداء المحبة والإشفاق: رويدكم، فنحن أمة ذات أمجاد وأصالة وتاريخ وحضارة ومنهج متميز منبثق من كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، فلا مساومة على شيء من عقيدتنا وثوابتنا وتأريخنا، ولسنا بحاجة إلى تقليد غيرنا، بل إن غيرنا في الحقيقة بحاجة إلى أن يستفيد من أصلتنا وحضارتنا، لكنه التقليد والتبعية والمجاراة والانهازامية والتشبه الأعمى من بعض المسلمين

هداهم الله، وقد حذر صلى الله عليه وسلم - أمتة من ذلك بقوله فيما أخرجه الإمام أحمد وأهل السنن: ((من تشبه بقوم فهو منهم)) والله المستعان.

ثامناً: ظهور مزية المدينة: فالمدينة لم تكن معروفة قبل الإسلام بشيء من الفضل على غيرها من البلاد، وإنما أحرزت فضلها بهجرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه إليها، وبهجرة الوحي إلى ربوعها حتى أكمل الله الدين وأتم النعمة، وبهذا ظهرت مزايا المدينة، وأفردت المصنفات لذكر فضائلها ومزاياها. تاسعاً وأخيراً: في الهجرة دروس في الامتثال لأمر الله، ودروس في الإيمان واليقين، ودروس في التخطيط وعدم التسرع، ودروس في التضحية والإيثار، ودروس في الحكمة وحسن التصرف، ودروس في الصبر والإصرار على الحق، ودروس في تقديم محبة الله ومراده على محبة المال والوطن والعشيرة، ودروس في أن الولاء لله تعالى والانتصار لدينه يجب أن يُقدّم على كلّ ولاء، ودروس في التوكل على الله تعالى وحده، ودروس في أن السرية في موضعها من حسن التدبير، ودروس في حسن اختيار الصحبة في المهام الكبيرة، ودروس في أن الدعوة تستلزم أحياناً تغيير البيئة لاستكمال مسيرتها نحو أهدافها العليا، ودروس في أن مكر أعداء الدين مهما عظم فلن يبلغ إطفاء نور هذا الدين.

وأنّ من صدق في نصر دين الله تعالى فسيؤيده الله بالآيات، وأنّ الصراع بين الحق والباطل يمر بمراحل أولها بعث الدعوة إلى الحق، ثم الانتشار وكسب الأنصار، ثم المواجهة الحتمية مع الباطل بالحجة والبيان، ثم مواجهته بالقوة والسنن، ثم التمكين لأهل الحق، ولابد من الابتلاء والامتحان في مرحلتي المواجهة قبل التمكين، وأن تسلط الكفار وعلوهم في بعض مراحل الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية لا تضر أهل الحق ولا تدل على هوانهم على الله تعالى. والحمد لله أولاً وآخراً...